﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ١٠٥﴾ [النحل: 105]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المفتري الكذب على الله تعالى، هم الكفّار لا الرّسولُ ﷺ

لمّا زيَّف الله تعالى في الآيات السابقة شُبَهَ الكافرين التي افترَوْها من قولهم عن الرسول ﷺ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭۚ﴾ [النحل: 101]، و﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ﴾؛ أثبت لهم في هذه الآية ما رمَوْا به النبي ﷺ، وهو بريء منه، مقصورٌ عليهم[1].

ولمّا ذكر الله تعالى في الآية السابقة اتِّهام كفارِ قريش رسولَ الله ﷺ باختلاق القرآن، وتَلَقّيه عن بشر، و"بعد أن نزّه القرآنَ عن أن يكون مفترًى، والمنزَّلَ عليه عن أن يكون مفتريًا؛ ثنى العنان لبيان مَن هو المفتري؟"[2]، وأكّد "براءة ساحته ﷺ عن لوث الافتراء"[3].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَفۡتَرِي﴾: "الفَرْيُ: قَطْعُ الجلد لِلخَرْزِ والإصلاحِ، والإفْراءُ للإفساد، والاِفْتِراءُ فيهما، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن الكريم في الكذب والشّرك والظّلم، نحو: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]"[4]، ومعنى الآية: يَخْتلِقُ.

2) ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾: "الكافُ والذّالُ والباءُ أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّدْقِ، وتَلْخيصُهُ أَنَّهُ لا يَبْلُغُ نِهايَةَ الكَلامِ في الصِّدْقِ"[5]، و"كَذَبَ يَكْذِبُ كَذِبًا: جاء بالكَذِب، أو أخبر بِخلاف ما يعرِف أنه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 4/ 313.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 470.
(4) الرّاغب، المفردات: (فري).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).

الواقع، وكذَب على غيره: أخبره بخلاف الواقع، أو نقل عنه ما لم يَقُلْه، ويقال: كذَب على نفسه: خدعها، وكذَّب غيرَه: نسَب إليه الكذِب، أو خطَّأه، أو نسَب إليه ما هو غيرُ صحيح ... وقوله تعالى: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 32]، أي: وصَفَه بما هو مُنَزَّهٌ عنه، أو أخبر عنه بما هو مخالف للواقع، أو نقَل عنه ما لم يصدر منه"[1].

فالكاذب على الله تعالى مدّعٍ عليه ما لم يقله، مزوِّرٌ مخادعٌ للناس مموِّهٌ عليهم، فتلك من صفات الكفار الذين يغطّون الحقائق ويظهرون خلافها.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

دلت هذه الآية على أن الرسول ﷺ لا يفتري الكذب أبدًا، إنما يختلقه مَن حُرم نورَ الإيمان بآيات الله ﷻ وكفر بها، و"لا يجرؤُ على افتراء الكذب وقلب الحقائق إلا الكافرون الذين اعتادوا على تكذيب آيات الله تعالى وبراهينه ... الذين لا يصدّقون بالبراهين والآيات الدالة عليه سبحانه"[2].

الـرّسـولُ ﷺ أصـدقُ النّاس، وأكملُهم علمًا وعملًا

وترشدُ الآية الكريمة إلى أنَّ الرسولَ ﷺ ليس كاذبًا فيما جاء به من عند ربِّه تعالى، فأعداؤه رمَوْه بالكذبِ الذي هو وصفُهم وعادتُهم التي اعتادوا عليها، فأظهر الله خزيَهم وبيّن فضائحَهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

معنى فصل هذه الآية عمّا قبلها:

الرّدّ على مزاعم المشركين

فصلت هذه الآيةُ عما قبلها لنزولها منها منزلة التعليل من المعلَّل، وبيان علة الحكم عليهم بالعذاب الأليم، لافترائهم الكذب،

(1) حسن الجمل، معجم وتفسير لغويّ لكلمات القرآن: (كذب).
(2) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 682.
(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 450.

ولأنها ردٌّ لقولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ [النحل: 101]، وقلبٌ للأمر عليهم ببيان أنهم هم المفترون وليس رسول الله ﷺ، بعد أن حقَّق أنَّ القرآن منزل من عند الله بواسطة جبريل عليه السلام[1].

دلالة القصر:

قـصـر الافـتـراء على الكفار دون غـيرهـم، وردُّ التهمة عليهم

دلَّ القَصْرُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾، على قصر الافتراء على الكفار بأسلوب "أبلغ مما قالوه؛ لأن قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ [النحل: 101]، قَصْرٌ للمخاطَب على صفةِ الافتراء الدائمة؛ إذ الجملة الاسمية تقتضي الثبات والدوام، فردَّ عليهم بصيغة تَقْصرُهُم على الافتراء المتكرِّر المتجدد؛ إذ المضارع يدل على التجدُّد"[2].

وكان ذلك بأسلوب ﴿إِنَّمَا﴾؛ إذ قَصر بها افتراء الكذبِ على كفار قريش ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قَصْرَ قَلْبٍ؛ إذ إنهم يزعمون أن محمدًا ﷺ يَكذب على الله تعالى، فردَّ الله تعالى عليهم هذا الزَّعْم بِقَلْبِ التُّهمة عليهم بعد أن حقق بالبرهان القاطع براءة ساحته ﷺ[3].

غرضُ القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ دونَ غيرها:

خـصـوصـيّـةُ الـتّـعـريـض الكامنة فيها، والكذبُ منحصرٌ في كفّار قريش

أوثِرَ القصر بـ ﴿إِنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ دون (ما) و(إلا) من طرق القصر الأخرى؛ لخصوصية التعريض الكامنة فيها، بل إنها "أقوى ما تكونُ وأعْلَق ما ترى بالقلب إذا كان لا يُراد بالكلامِ بعدَها نفْسُ معناه، ولكنَّ التعريض بأمرٍ هو مُقْتضاه"[4]، فإيثارها في هذا الموضع "من لطائف المعاريض؛ إذ لمّا وصفوه عليه السلام

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 142.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/ 410.
(4) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 354.

بالافتراء أنار الحقّ سبحانه في الجواب، فقال: لست أنت المفتري، إنما المفتري من كذّب معبوده، وجهل توحيده"[1].

ويدلّ القصر بها على أنّ الحُكْمَ بِقَصْر الكذب على كفار قريش دون النبي ﷺ حُكْمٌ معلومٌ مُسَلَّم به، لا يَشُكّ فيه أحدٌ، حتى إنهم هم في قرارة أنفسهم يقرّون به؛ لأنَّ ﴿إِنَّمَا﴾ تُستعمل في اللغة للخبر الذي "لا يَجهلُهُ المخاطَبُ، ولا يَدفعُ صِحَّتَه"[2].

سِرُّ التّعبير بالافتراء دون غيره:

المفترون على الله ورسوله يتفنّنون في اصطناع الكذب

أوثِرَ التعبير بالافتراء دون غيره للدلالة على أنه كذبٌ مبالغٌ فيه أُعدّ إعدادًا متقنًا أظهره أصحابه في ثوب جميل لكي يروج على بعض الناس؛ أخذًا من الفراء، وهو لبس الثوب الجميل من باب المخادعة؛ لأنَّ الافتراء هو الاختلاق الذي لا رصيد له من واقع يُصَدِّقه، فالتعبير به يقرر أنَّ هؤلاء يدَّعون ادعاءً لا دليل عليه، ولا وجود له، وأنهم متقوِّلون بالفِرَى على الله تعالى، وعلى رسوله ﷺ بأنّ بشرًا يعلِّمُه القرآن الكريم.

دلالةُ التّعبير بالمضارع ﴿يَفْتَرِى﴾:

الكفّار لا يتوقّفون عن التّكذيب بالحقّ وأهله

المضارعة في ﴿يَفْتَرِى﴾ تفصح عن تجديدهم الافتراء كلما حانت لهم الفرصة، لا يتورّعون عنه قط، وأنهم ينوّعون فيه، ويتفنّنون في خداع الناس والتمويه عليهم ليطفئوا نور الله تعالى، وأوثِرتْ أيضًا لرعاية المطابقة بين هذه الآية "وبين ما هو عبارةٌ عنه؛ أعني قولَه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾"[3].

سِرُّ التّعبير بالكذب بعد الافتراء:

تأكيدُ قبح ما زعمه هؤلاء الكفار لمخالفته للعقل والواقع

عبّر القرآن الكريم بالكذب بعد الافتراء من باب ذكر العام بعد الخاص للمبالغة في بيان قبحه؛ لأن الافتراء نوع من الكذب، يؤكد

(1) القشيريّ، لطائف الإشارات: 2/ 322.
(2) الجرجانيّ، دلائل الإعجاز: 1/ 380.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/ 142.

ذلك تأكيد فعل الافتراء بمفعوله الذي هو بمعنى المفعول المطلق لكونه آيلًا إليه في المعنى[1]؛ وذلك لأنَّ الآية مشحونةٌ بذكر أسباب الذمّ لهؤلاء الكافرين، وتلك المذمات تتمحور حول أوصاف الكذب والافتراء والاختلاق التي يؤكِّد بعضها بعضًا؛ وذلك لأنّ ما قالوه لا يصدقه العقل السليم؛ لأن أمر التعلم الذي ادَّعَوْه على الرسول ﷺ من بشر لا يتأتّى من جلسة واحدة، بل يحتاج إلى أزمنة متطاولة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر بين الناس، ولا سيّما أنّ العلوم الموجودة في القرآن كثيرة، وتعلمها لا يتأتّى إلا من إنسان بلغ الغاية في التعليم والتحقيق، ولو وجد ذلك لكان مشارًا إليه بالبنان، والواقع لا ينطق بذلك؛ من هنا كان التعبير بالكذب بعد الافتراء من أدلّ الأدلة على قبح ما زعمه هؤلاء الكفار لمخالفته للعقل وللواقع.

دلالةُ التّعبير بالمصدر ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ دون التصريح بالفِرْيَةِ نفسها:

المبالغةُ في ذمِّهم، فالاتهام للقرآن وللرسول عينُ الكذب

الناظر في هذه الآية يجد التصريح بالكذب دون تحديد الفرية نفسها مع أنها معلومة ومعروفة مثل تكذيبهم نسبة القرآن الكريم إلى الله ﷻ، وتكذيبهم نبوّة الرسول ﷺ، غير أنَّ الآية الكريمة لم تنصَّ على تلك الافتراءات، بل ذَكرت وصفَها مباشرة (الكاذبة)، وأقامت مقام هذا الوصف مصدره ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾، فأخبرت بأنّ الكفار لا يختلقون فِرًى كاذبة، وإنما يختلقون ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ نفسَه، فكأن الآية الكريمة تقول: من أراد أن ينظر إلى الكذب محسوسا مجسَّدًا فلينظر إلى تلك الفِرى؛ فإنها منحوتةٌ من مادّة الكذِب الخالص؛ وذلك أبلغ الذمّ وأشدّ التهديد.

تعريفُ اسم الجنس أقوى من تنكيره، فالكفّارُ بلغوا في الكذب نهايتَه

معنى (أل) في ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾:

تدلّ (أل) في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ﴾ على التعريف الذي يفيد أنّ الكفار بلغوا في الكذب نهايته، فكأنّه الكذب الكامل في

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.

بابه؛ كما يفيد تعريف ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ "بأداة تعريف الجنس الدالّة على تميُّز ماهية الجنس واستحضارها، فإنّ تعريف اسم الجنس أقوى من تنكيره، كما في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2]"[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

التّشهيرُ بهم بما يَدُلّ على كفرهم

أفاد التعبير "عن المقصور عليهم باسم الموصول دون أن يذكر ضميرهم، فيقال: إنما يفتري الكذب أنتم؛ ليفيد اشتهارهم بمضمون الصلة، ولأنّ للصّلة أثرًا في افترائهم، لِما تفيده الموصولية من الإيماء إلى وجه بناء الخبر"[2].

ومما يذكر في سِرّ التّعبيرِ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ التشهير بهم بما يدل عليه من أنهم كفار جاحدون[3].

سِرُّ تكرار جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ مع سبق ذكرها:

التّنويه بمكانة الآيات وعظمتها، وبإيمانِ المؤمنين وذمّ الكافرين

سبق ذكر قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ في الآية السابقة، فتَكرار جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ في هذه الآية كذلك يشعر بأنَّ آياتِ الله تعالى من حيث الأهمية والقيمة والعظمة من الله تعالى بمكان، وأنه لا يسع أحدًا عدمُ الإيمان بها؛ لقيامها بدليل صدق رسول الله ﷺ وصدق نسبة القرآن الكريم إلى الله تعالى خير قيام لما لها من خطر في ميزان الشرع؛ لِبهاء تفاصيلها، ولِقوّة تأثيرها.

كما أن في تكرار جملة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ من مفهوم المخالفة التنويه بإيمان الذين يؤمنون بآيات الله؛ فلا يخرجون عن الجادّة، ولا يَقبلون أن تكون كلمة ﴿ٱلۡكَذِبَ﴾ من بضاعتهم! وفي هذا دفاع عن النبيّ ﷺ، ودفعٌ لهذا الاتهام المفترَى، الذي يتهمه المشركون به.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 290.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(3) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 211.

براعةُ التعبير بنفي المضارع ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دون نفي الماضي:

فتحُ بابِ الأمل، ومنعُ اليأسِ من إيمان الكافرين

آثر القرآن الكريم التعبير بنفي المضارع ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ بـ ﴿لَا﴾ دون (لم)؛ فلو قيل - في غير القرآن -: إنما يفتري الكذب الذين لم يؤمنوا بآيات الله - لظلَّت وصْمة الكفر الأولى عالقةً بأصحابها حتى وإن آمنوا بآيات الله تعالى بعد هذا، وذلك غير صحيح؛ لأن الإسلام يجبُّ ما قبله كما تجبُّ التوبةُ النصوح ما قبلها، ولأن كثيرًا من كفّار قريش أسلموا وحسن إسلامهم، مثل خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وغيرهما، فالكفر الذي كان أوّل الأمر لا يحول بين المرء وبين الإيمان ما لم يغرغر.

ولئلا يبعث اليأس في نفوس الكافرين كان لا بد من نفي المضارع في جملة ﴿إِنَّمَا يَفۡتَرِي ٱلۡكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ بـ ﴿لَا﴾ دون (لم) كما جاءت عليه التلاوة الشريفة.

وإنّ نفْيَ المضارع بـ ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يفصح عن تجدُّد هذا الحكم عليهم الحكم بالفرية على باطلهم المزعوم بالكذب، وأنهم لن يخرجوا من حظيرة الكذب إلّا بالإيمان بآيات الله ﷻ.

وقد"اختير في الصلة صيغة ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ دون: (لم يؤمنوا)، لتكون على وِزان ما عُرفوا به سابقًا في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾، ولِما في المضارع من الدلالة على أنهم مستمرّون على الكفر، ولم يتوقع منهم تجدد الإيمان؛ فيستمرون على الكذب فيصير دأبهم وعادتهم"[1].

الألوهية في مقام العطاءات المعنوية، والربوبية في العطاءات الحسيّة

نُكْتَةُ إضافة الآيات إلى الألوهية دون الربوبية:

أضيفت الآيات إلى لفظ الجلالة في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۖ﴾ دون الربوبية؛ فلم يقل (بآيات ربهم)؛ لأنه لمّا كان المقام مقامَ نفي إيمان

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 9/ 200، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.

بالآيات وجحودها، واختلاق الأكاذيب عليها، وكل ذلك يتعلق بجانب الألوهية لا الربوبية؛ آثر الذكر الحكيم إضافة ﴿بِـَٔايَـٰتِ﴾ إلى لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ ﷻ دون ذِكر الربوبية؛ فلم يقل: (بآيات ربهم).

دلالةُ الوصل في ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

الكافر يجمع بين عدم الإيمان، والاختصاص بالكذب

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾ للاستئناف؛ وفي الوصلِ بين الجملتين بيانُ المزامنةِ بين عدم إيمان الكفار: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾، وبين الحكم عليهم واختصاصهم بالكذب الخالص: ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾؛ فالواو عَقَدَتْ للكفار وجمعت لهم بين السوأتين: عدم الإيمان بالآيات، والاختصاص بالكذب.

ولفظاعة جرم الكفّار الذين ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ أُرْدِفَت بالواو جملةُ القصر ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ﴾ بجملة قصر أخرى بطريق ضمير الفصل، وطريق تعريف المسند: وهي جملة ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ﴾[1].

سِرُّ التّعبير باسم الإشارة:

التّصريحُ ببعدِ الكفّار عن ساحة الإيمان بالله تعالى وآياته

في التّعريف بالإشارة المختصّة بالبعيد ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ إيحاءٌ ببُعد منزلة هؤلاء المفترين الكاذبين في الضلال، وكأنَّ اسمَ الإشارة يُطَوِّح بهم بعيدًا عن ساحات الإيمان بآيات الله تعالى، تلك الآيات التي لا يؤمنون بها برغم جلائها أمام أعينهم.

وفي تلك الإشارة "تصريحٌ بعد التعريض؛ ليكون كالوشم عليهم، وهذا الأسلوب أبلغ من أن يقال: أنتم معشرَ قريش مفترون؛ لما أشير إليه، ولإقامة الدليل على أنهم كذلك"[2].

و"افتُتِحتْ جملة القصر باسم الإشارة بعد إجراء وصف انتفاء الإيمان بآيات الله عنهم، ليُنَبِّه على أنّ المشار إليهم جديرون بما

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 470.

يرد من الخبر بعد اسم الإشارة، وهو قصرُهم على الكذِب؛ لأنّ مَن لا يؤمن بآيات الله يتّخذ الكذب ديدنًا له متجددًا"[1].

دلالة ضمير الفصل ﴿هُمُ﴾:

تخصيصُ الكافرين بأنهم الكاذبون على الحقيقة

عبّر القرآن الكريم "بضمير الفصل ﴿هُمُ﴾ لإفادة التخصيص، فهؤلاء الجاحدون هم فقط الكاذبون على الله"[2] وعلى نبيه ﷺ، فهو قصر قلْب، وهم الكاذبون على الحقيقة، الكاملون في الكذب؛ لأنَّ تكذيب آيات الله ﷻ أعظمُ الكذب.

بلاغة القصر في جملة التّذييل:

الكافرون أصلٌ في الكذب والافتراء، ومَن سواهم تبعٌ لهم

من المعلوم الواقع أنّ الكذب قد يَصدر من كثير من الناس، ليس فقط من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، غيرَ أنَّ كذب هؤلاء ليس كأيّ كذب، وفي الحديث الشريف: "إنّ كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد ... "[3]، وفي الحديث الآخر: "مَن كذب عليّ متعمدًا فليتبوَّأ مقعده من النّار"[4]، فما أبشع الكذب في الدين وعلى الدين؛ لذلك فهذا القصر "قصر حقيقي ادعائي للمبالغة، إذ نزل بلوغ الجنس فيهم مبلغًا قويًّا منزلة انحصاره فيهم"[5]، فأفاد أنهم "أصل في الكذب والافتراء، ومَن سواهم تَبَعٌ لهم، يَقتدي بهم، ويتعلّق بأذيالهم"[6].

سِرُّ وصْفِ الكفّار بالكذب دون غيره:

الكذب دون سواه ينافي الإيمان بالله

لما كان الكفر وعدم الإيمان ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الباهيةِ الزاهية أقبحَ الذنوب؛ ناسبه أن يوصف صاحبُه بأقبح الصفات الأخلاقية على الإطلاق وهو الكذِب؛ لذلك نَفى الرسول ﷺ عن المؤمنين الاتِّصاف به؛ حيث سُئل:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(2) القدّوميّ، التّفسير البيانيّ، ص: 211.
(3) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1291)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1291)، عن المغيرة بن شعبة.
(4) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (1291)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2134، 2266)، عن جابر بن عبيد الله.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(6) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 7/ 374.

أيكون المؤمن كذا وكذا، فيجيب: نعم، إلا في الكذِب، فقال: "لا"[1]؛ لأنّ الكذب قطعًا يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار كما أخبر ﷺ[2].

عِلّةُ تكرارِ وصفهم بالكذب:

إيقاعُ صفة الكذب عليهم على الدوام

كرَّر التعبيرُ القرآني وصفَهم بالكذب في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾؛ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم؛ إذ الصفة بالشيء أبلغ من الخبر به؛ لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأ في هذه الآية بالخبر، ثم أكَّد بالصفة"[3]، فأثبت أنّ الكذب "نعتٌ لازِم لهم، وعادةٌ من عاداتهم"[4].

غرضُ تعريف المسند ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ بـ(أل):

قصرُ جنسِ الصفة على الموصوفين، مبالغةٌ في كمالهم في الكذب

جاء المسند ﴿ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ معرَّفًا باللام ليُفيد أنّ جنس الكاذبين اتَّحَدَ بهم، وصار منحصرًا فيهم، أي: الذين تعرف أنهم طائفة الكاذبين هم هؤلاء، وهذا يؤول إلى معنى قصرِ جنس المسند على المسند إليه، فيحصُل قَصْران في هذه الجملة: قصرُ موصوف على صفة، وقصرُ تلك الصفة على ذلك الموصوف ... قصر إضافيّ، أي ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ على الحقيقة لا غيرهم الذي رَمَوْهُ بالافتراء وهو محاشى منه[5]، أي أنّهم دونه ﷺ، فهم المتناهون في الكذب أو الكاملون فيه، على أنّ اللام للجنس، ويدلُّ ذلك على قصر الجنس في المشار إليهم، مبالغةً في كمالهم في الكذب؛ إذ لا كذب أشنع من تكذيب آيات الله والطعن فيها، مع وضوح أنها آياتُه وبراهينه ﷻ[6].

(1) أخرجه مالك في الموطأ، برقم: (19)، عن صفوان بن سُليم.
(2) أخرجه البخاريّ في صحيحه، برقم: (6094)، ومسلم في صحيحه، برقم: (2607)، عن عبد الله بن مسعود.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 3/ 422.
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 85.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 291.
(6) مجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 5/ 682.

دلالة التّعبير بـ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ دون (الكذّابون):

الـكـاذبُ ثـابـتٌ عـلـى كـذِبـه وراسخ فيه، أمّا الـكـذّاب فـمُـكْـثِرٌ مِنَ الكذب

آثَر الذّكرُ الحكيم صيغة اسم الفاعل (كاذب) في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾ دون (الكذّابون)، بِغَضِّ النظر عن المبالغة والتَّكرار في (الكذابون)، فعُنِي بجانب الاسمية ودلالتها على رسوخ الصفة في الكاذب؛ ليقرّر أنّ كذبهم مقطوع به لهم، قال أبو حيان: "التوكيد البالغ والحصر بلفظ الإشارة، والتأكيد بلفظ هم، وإدخال (أل) على ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، وبكونه اسم فاعل يقتضي الثبوت والدوام"[1].

مناسبةُ الجمع بين عدم الإيمان والكذب:

الـكـذب والـكـفـر قرينان، يستلزم كلٌّ منهما الآخر

في الجمع بين عدم إيمان كفار قريش بالآيات وبين الحكم عليهم بالكذب دليل استلزام كلٍّ منهما الآخر، فالكاذب لا يؤمن بآيات الله تعالى حقَّ الإيمان وإنِ ادّعاه – وقد سبق حديث: أن المؤمن لا يكون كذّابًا – ومن لا يؤمن بآيات الله تعالى هو قطعًا كاذب؛ لأنه منتكِس الفطرة، معاند للدعوة، ناكب عن الحق، وعلى هذا؛ فالنظم الكريم يقرِّر ويؤكّد التلازم بين الحرمان من احتضان أنوار الآيات، وبين الاتصاف بالكذب الكامل في بابه، ويقرر أنّ هذا كله بعضه من بعض، وأنّ أحدهما يَجُرّ إلى الآخر ويستلزمه قطعًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافتراء، والاختلاق، والكذب:

الكذب: هو عدم مطابقة الخبر للواقع، أو لاعتقاد المخبِر لهما يؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ [المنافقون: 1]؛ ردًا على قول المنافقين ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۘ﴾ [المنافقون: 1] وهو قول يطابق الحقيقة، ولكنه يخالف العقيدة التي يضمرونها، ولهذا سمّاه الله كذبًا من هذه الجهة، والافتراء: أخصّ منه، لأنه

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 597.

كذبٌ مبالغٌ فيه أُعد إعدادًا متقنًا؛ فظهر في ثوبٍ جميل لكي ينخدع الناس فيه، ويُلَبَّس الباطل فيه ثوب الحق، قال تعالى في حق اليهود: ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ﴾ [النساء: 50]؛ فسمّى كذبهم افتراءً من هذه الناحية، وقال سبحانه حكاية عن الكفار: ﴿أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [سبأ: 8] لِزَعْمِهِم أنه أتاهم بما لا يرتضيه اللّه سبحانه مع نسبته إليه، وعلى هذا فالافتراءُ نوعٌ من الكذب، ومن الفروق بينهما، أنّ الكذب يجوز في بعض المواطن، كالكذب في الحرب، والإصلاح بين الناس، وعلى الزوجة، بخلاف الافتراء[1]؛ أما الاختلاق فهو كذبٌ خاصّ يغلب عليه الاختراع، ولم يرد في القرآن الكريم إلا في قوله تعالى: ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٞ ٧﴾ [ص: 7]، و"الفرق بين افترى واختلق: أنّ افترى قطع على كذب وأخبر به، واختلق قدَّر كذبًا وأخبر به؛ لأنّ أصل افترى قطع، وأصل اختلق قدَّر"[2].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 499.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 62.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع والعشرون،
سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 27 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-24-1
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 27 : المجلد السابع والعشرون، سورة النّحل من الآية 72 إلى سورة الإسراء الآية 05.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-24-1
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7597590 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»